

التصوّف بين عمر الخيام وبدوي الجبل

* د. أسمهان صالح

**لمى سليمان

(تاريخ الإيداع ١١/٦/٢٠٢٥. قَبْلُ للنشر في ١/٢٧/٢٠٢٦)

□ ملخّص □

التصوّف ظاهرة اجتماعية، دينية، أدبية، تأصلت في الوجدان الشعبي والنتاج الأدبي منذ عصور ما بعد الإسلام. جاءت ردّ فعل على انشغال الناس بالدنيا، فكان هدفها الزهد في الدنيا وتطهير القلب والارتقاء بالنفس لبلوغ الحقيقة المطلقة. ويعد عمر الخيام واحداً من أكثر الشعراء جدلاً بانتمائه إلى الصوفية؛ فهو الذي ضمّن شعره أفكاراً ورموزاً ومعرفةً سمت به فوق أقرانه. كما يعد بدوي الجبل من أبرز شعراء العصر الحديث الذين ملكوا ثقافة وعلماً وشوقاً للوصول إلى الحقيقة والخلاص من الواقع.

وهذا البحث هو محاولة للوقوف على مواطن التشابه والاختلاف بين تصوّف الخيام وتصوّف البدوي. ولذلك ارتأى البحث أن تكون هذه الدراسة المقارنة بهدف فهم تطوّر ظاهرة التصوف بين عصرين مختلفين بدايةً، ثم الكشف عن خصائص التصوف في شعر كل منهما، ومحاولة إدراك التقارب بين الشاعرين من ناحية التجربة الشعرية الصوفية.

الكلمات المفتاحية: التصوف، بدوي الجبل، عمر الخيام

* أستاذ دكتور، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم اللغة العربية، جامعة طرطوس، سوري
**طالبة دراسات عليا، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم اللغة العربية، جامعة طرطوس، سوريا، عربي سوري

Sufism Between Omar Khayyam and Badawi al-Jabal

Dr. Asmahan Saleh*

Lama sulaiman**

(Received 6/11 /2025. 27 /1/2026)

□ ABSTRACT □

Sufism is a social, religious, and literary phenomenon deeply rooted in both the collective consciousness and the literary heritage of post-Islamic eras. It emerged as a reaction to people's growing preoccupation with worldly matters, seeking instead detachment from material life, purification of the heart, and elevation of the soul in pursuit of the ultimate truth.

Omar Khayyam is considered one of the most controversial poets regarding his association with Sufism. His poetry is infused with ideas, symbols, and wisdom that elevated him above his contemporaries. Likewise, Badawi al-Jabal stands as one of the most prominent modern poets—distinguished by his knowledge, refined culture, and spiritual yearning to grasp the truth and transcend the burdens of reality.

This study aims to explore the points of similarity and difference between Khayyam's mysticism and that of Badawi al-Jabal. It undertakes a comparative approach to understand how the Sufi experience evolved across two distinct eras, to identify the unique characteristics of Sufism in each poet's work, and to trace the spiritual and poetic affinities that bring them together.

Key Words: Sufism, Badawi al-Jabal , Omar Khayyam

* Professor, college of Arts and Humanities, Department of Arabic Language, Tartus University, Syria

** Postgraduate student, college of Arts and Humanities, Department of Arabic Language, Tartus University, Syria

المقدمة

الشعر مكوّن أساسي من مكونات الثقافة عند الشعوب، يعبر الشاعر من خلاله عن مكونات نفسه، وما يختلج في داخله من اضطرابات؛ ولعلّ قضايا الوجود والإيمان والتفكير بالذات الإلهية من أهم القضايا التي شغلت الشعراء منذ القرن الرابع الهجري وحتى هذا العصر.

وعلى الرغم من اشتراك الشعراء ببعض الرموز والأسس التي ميّزت الشعر الصوفي من غيره، فإنّ كل شاعر كان يتفرد بتجربته ورؤاه وانفعالاته، وهذا ما انعكس في شعره.

وهذا البحث يحاول أن يرصد ظاهرة التصوف في الشعر العربي وتطورها، ثم يقف على تجربتين مهمتين في عصرين مختلفين هما تجربتا عمر الخيام وبدوي الجبل كونهما تركا أثراً مهماً في هذا النوع من الشعر.

أهمية البحث وأهدافه:

التصوّف ظاهرة نشأت في عصر ما بعد الإسلام رد فعل على انشغال الناس بالحياة الدنيا ورغبة بعضهم الآخر بالانعتاق والزهد وترك الرغبات الدنيوية، وقد لجأ بعض الصوفيين إلى الشعر لتجسيد هذا الزهد وكسر رغبات النفس. والخيام واحد من هؤلاء الصوفيين الذين سخروا شعرهم ليعكس جانبهم الروحي وكذلك بدوي الجبل. لذلك سيركز البحث على دراسة هذه الظاهرة (التصوف) في شعرهما. ويهدف البحث إلى الوقوف على أسس الظاهرة في شعر كل منهما ومحاولة اكتشاف مكامن التشابه والاختلاف في التجربة الشعرية والنظرة الوجودية.

منهجية البحث:

سيعتمد البحث على منهجية تنطلق من تحديد الظاهرة المدروسة وهي (التصوف)، ثم البحث في تطورها بين القدماء والمحدثين.

والانتقال إلى رصد بعض مظاهرها في شعر عمر الخيام وبدوي الجبل، بغية الوصول إلى هدف البحث وهو إظهار التفاعل الفكري والنصي في شعر الخيام والبدوي.

وسيحاول البحث اعتماد المنهج الوصفي التحليلي الذي يسعى إلى تعرف خصائص الشعر عن طريق استخدام الملاحظة والاستنتاج والتقصي للغوص في أعماق النص الشعري وبلوغ جمالياته وإدراك سماته.

سابقة البحث:

قدّم الباحثون كثيراً من الدراسات التي عنيت بالتصوّف منذ نشأة الظاهرة وحتى عصرنا هذا. أمثال الإمام كمال الدين أبي الفضل جعفر بن ثعلب الأدفوي المصري (٧٤٨-٦٨٥هـ) في كتابه (الموفي بمعرفة التصوف والصوفي) الذي تناول الحديث عن الصوفية منذ نشأة الحركة في القرن الثاني الهجري وحتى القرن السادس للهجرة، وأدونيس في (الصوفية والسوريالية) وهذا الكتاب يُعنى بالتشابه بين الظاهرتين من حيث الغموض والرمز.

أما الدراسات التي تناولت التصوف في شعر عمر الخيام وبدوي الجبل فهي قليلة، ولا توجد دراسات مقارنة تشمل التصوف في شعر هذين الشاعرين، ولعلّ الدراسات التي تناولت تصوّف الخيام كانت أشمل من الدراسات التي تناولت تصوّف بدوي الجبل؛ فالأخيرة لا تعدو كونها أبواباً في دراسات شاملة لشعره. ونعرض مثلاً لذلك (ظواهر أسلوبية في شعر بدوي الجبل) د. عصام شريتح، و(التجربة الشعرية في شعر بدوي الجبل) د. رابع فروجي.

أما الخيام فقد أُفردت له دراسات خاصة مثل (الاتجاه الديني في رباعيات عمر الخيام) للدكتور فخري بوش.

تمهيد:

التصوّف ظاهرة متأصلة في النتاج الأدبي منذ عصور ما بعد الإسلام ، وقد ركزت هذه الظاهرة على تطهير النفس والانصراف عن الدنيا. إذ لجأ بعض المتصوفة إلى الشعر ليعكسوا جانبهم الروحي ومحاولتهم الارتقاء بالنفس للوصول إلى الحقيقة المطلقة بعد تخطي الصعوبات والحواجز والعثرات للوصول إلى الهدف الرئيس وهو تطهير القلب من الرغبات الدنيوية والتخلي بالفضائل وفهم حقائق الكون والروح. وسيدرس البحث هذه الظاهرة عند عمر الخيام وبدوي الجبل؛ فالخيام كان فيلسوفاً يسعى إلى الابتعاد عن الدنيا بما فيها، فكتب رباعياته التي صوّرت عمق أفكاره وزهده. أما البدوي فهو شاعر وفقهه نشأ في بيئة طغى فيها الدين والأدب على الحياة، فاستلهم من كتب الدين أفكاراً جسّدها في شعره لتظهر سموه الروحي.

١- التصوّف والمتصوّفة:

أ- التصوف لغةً:

جاء في لسان العرب : "الصَّوْفُ للضَّانِّ وما أشبهه؛ الجوهرى: الصوف للشاة والصّوفة أخص منه. وقد يقال الصوف للواحدة على تسمية الطائفة باسم الجميع"^١
ب- التصوف اصطلاحاً:

أما التصوّف في المصطلح فهو: "عبارة عن قصد طريق طائفة مخصوصة سمّوا بالصوفية" وكلمة (التصوّف) مشتقة من (الصوف) لأن المتصوّفة كانوا يميلون إلى الزهد والبعد عن ترف الدنيا، والصوف هو رمز النقشف وترك الرفاهية والترّف.

فالصوفيّ هو "من اتصف بالصفات المحمودة في الشرع، وتخلّق بالأخلاق الممدوحة، وإن بَعُدَ عنها الطبع، معرضٌ عن الدنيا، مقبلاً على الأخرى، سالك الطريق التي هي أولى بالمرء وأحرى"^٢
لذلك قد يكون كثير من الناس في مختلف العصور صوفيين إذا اتبعوا هذا النهج والطريقة، أما ما يجعل الشاعر الصوفيّ مختلفاً عن الصوفيّ العادي، هو امتلاكه أدوات التعبير والموهبة التي خصّه بها الخالق والقدرة على نقل التجربة للأخريين.

فالشاعر الصوفيّ استطاع أن يحوّل تجربته الذاتية إلى نص شعري يكون "استجابة لحنين الروح إلى مصدرها الأول ذلك الحنين الذي يقوى كلما قلت سيطرة الجسد المادي على الروح" وتمكّن من تحويل الرموز المحسوسة إلى أداة تعبر عن المفاهيم المجردة التي يحاول إدراكها.

^١ لسان العرب-ابن منظور-تحقيق عبد الله علي الكبير-محمد أحمد حسب الله-هاشم محمد الشاذلي-دار المعارف-القاهرة-ط١-باب (صوف)

^٢ الموفي بمعرفة التصوف والصوفي-تأليف الإمام كمال الدين أبي الفضل-جعفر بن ثعلب الأدفوي المصري-حققه د. محمد عيسى صالحة-مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع-الكويت-ط١-١٤٠٨/١٩٨٨-ص٣٤.

^٣ المصدر السابق-ص٤٦.

^٤ التصوف في الشعر العربي-عبد الحليم حسان-مكتبة الأنجلو المصرية-١٩٥٤-ص٢٢.

لذلك يمكن أن يكون الشاعر الصوفي لساناً ناطقاً معبراً عن تجارب أشخاص كثر، وناقلاً لتجربة صوفية خالدة عبر الزمن.

وبعد ذلك نشأ اتجاهان بين المتلقين؛ فبعضهم كان مؤيداً لهذا الاتجاه، وبعضهم الآخر كان يرفض التصوف رفضاً قاطعاً ويعدّه نوعاً من الإلحاد أو الانحراف عن العقيدة. على الرغم من تأكيد المتصوفة الاستناد إلى القرآن الكريم والسنة الشريفة لفهم الذات والتقرب من الله.

وقد أنجبت الصوفية عدداً كبيراً من الشعراء الذين امتلكوا ناصية الشعر واستطاعوا التعبير عن حالاتهم الانفعالية وأفكارهم ورؤاهم. أمثال: ابن الفارض (ت ٦٣٢هـ) وابن عربي (ت ٦٣٨هـ) وجلال الدين الرومي (ت ١٢٧٣هـ) وغيرهم من الشعراء الذين أثروا الشعر العربي بكلمات مملوءة بالشوق إلى الحبيب الإلهي.

٢- وقفة مع عمر الخيام وبدوي الجبل:

أ- عمر الخيام:

عمر الخيام: هو أبو الفتح غياث الدين عمر بن إبراهيم الخيام، ولد في نيسابور عام (٤٣٣هـ) وفيها تلقى علومه* (ت ١١٣١م) (ت ٥١٧هـ)

و"كان الخيام قبل كل شيء، فيلسوفاً نزيهاً وأديباً عفيفاً، يزينه الوقار، ويسمو به جلال العلم على أقرانه من أهل زمانه" كما عُرف بتفوقه في مجال الرياضيات، ولم تكن له مؤلفات كثيرة باللغة العربية، وأشهر مؤلفاته هي الرباعيات، إذ "نظمها في أزمنة وأمكنة مختلفة وكانت نفسيته تتمثل في كل رباعية من رباعياته تمثلاً خاصاً بها بما كان يحيط به من المؤثرات" وقد اصطدمت هذه الرباعيات بفتنة من الناس تدعي أنها إلحاد ودعوة إلى المجون، لكن فئة أخرى أكدت أن الخيام "يظهر في رباعياته من الشك في أمر الحياة والموت موحد يؤمن بوجود إله خلق الكون وهيمن عليه، مؤدّ فريضة الحج، مواظب على الصلاة، ولذلك أدخل المتصوفة- وهم ألد أعدائه- بعض أشعاره في أورادهم واهتموا بدرسها" ومن هنا يأتي السؤال هل الخيام متصوف أم لا؟

إنّ الدارس لأسس الشعر الصوفي والباحث في خصائصه لا بدّ أن يلمح شذراته في رباعيات الخيام، كما إنّ الباحث في حياة الخيام لا بدّ أن يفهم السبب الكامن خلف أفكاره، فقد "مقت الخيام الوجود وفضل العدم ووصف الدنيا بدار المحن والمصائب وقد أكثر من ذمّها حتى تجاوز الحد والقصد. وتشاؤم الخيام هو الذي زهد في عينه الدنيا وكره إليه الحياة"

ب- بدوي الجبل:

وفي زمن يبعد كثيراً عن الخيام ولد "محمد سليمان الأحمد في قرية (ديفة) التابعة لقضاء الحفة في جبل (اللكام) من محافظة اللاذقية" و"كانت ولادته بين عامي ١٩٠٣-١٩٠٤، والده الإمام الشيخ سليمان الأحمد، وهو فقيه وأديب

*انظر عمر الخيام-تأليف وترجمة أحمد حامد الطراف-مطبعة دار السلام-١٣٥٠هـ/١٩٣١م-ص ٨٤ وما بعدها + انظر رباعيات الخيام-

أحمد رامي-دار الشروق-١٤٢١/٢٠٠٠-القاهرة-ط١-ص ٩

١ الاتجاه الديني في رباعيات عمر الخيام-د. فخري بوش-مجلة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانية-مجلد ٣٦-العدد الرابع-٢٠٢٠-ص ١٨

٢ عمر الخيام-ص ٩٧

٣ رباعيات الخيام-ص ٢٨

٤ عمر الخيام-ص ١٤٣

٥ بدوي الجبل دراسة في حياته وشعره-محمد سليمان حسن-مجلة المعرفة-عدد ٤٦٢-١مايو ٢٠٠٢-ص ٢٣٨

وعالم لغوي" نشأ في بيئة دينية أدبية، ودرس القرآن الكريم والحديث الشريف، عانى في حياته من الفراق والفقد والظلم، ما دفعه إلى البعد عن الرغبات الدنيوية ومعالجة مشكلات الحياة بطريقة مختلفة. لذلك كان "الإيمان النقي جُنْتَه التي تحميه، وجنّته التي يلجأ إليها ويتحصن فيها"

والقارئ لنصوص بدوي الجبل لا بد أن يلمح رموزاً تعبّر في ظاهرها عن شيء وتتبض في باطنها بشيء آخر، يكون نابغاً حيناً من يأس من الحياة ومتطلعاً في حين آخر إلى الحقيقة المطلقة، وهذا ما جعل بدوي الجبل شاعراً يستعير أساليب الصوفية ورموزها للتعبير عن مشاعره وأفكاره، إذ إنّ "المتصوف في مفهوم البدوي، يتمثل في السمو الروحي، والصعود إلى مستوى من الوجدان والإيمان والطهر والنقاء، والسبيل إلى ذلك الخلوة والعزلة من عالم المادة ومناجاة المعبود، والتقرب إليه بكثرة الصلاة وتلاوة القرآن والتطلع الدائم إلى الخلاص"

٣- خصائص الصوفية في شعر الخيام والبدوي:

تجلّى الشعر الصوفي تعبيراً أدبياً عن تجربة وجدانية وروحية بحتة، تمثلت في إنشاء علاقة خاصة مع الخالق، لذلك تفرّد كل شاعر في طريقة تعبيره عن تجربته بعد أن تشابهت الأهداف، إذ إنّ "هدف التصوف هو الوصول إلى الحق، أو المطلق، والاتحاد به، ولا يصل الصوفي إلى هذا الهدف إلا بمجهود شاق طويل، يركّز على إماتة الرغبات، وكسر شره النفس"

وخصائص الشعر الصوفي سارت في اتجاهين؛ أحدهما فكري والآخر لغوي؛ فالموضوعات الفكرية التي طرقتها الشعراء الصوفيون تمثلت في الحب الإلهي وترك الدنيا بما فيها، أما طريقة التعبير عن هذه الموضوعات فقد تمثلت في اعتماد خاص على ألفاظ ومصطلحات خاصة بالمتصوفة، كما تمثلت في الرموز والصور البيانية التي خرجت عن المؤلف لتحمل معنى آخر يتوافق مع التجربة الروحية.

أ. الحب الإلهي

العشق الإلهي هو محور الشعر الصوفي؛ فهو حبّ لا يشبه أي حبّ دنيوي بل حبّ يسمو ويترقّع عن كل مادي لبلوغ عالم الروح.

وعمر الخيام في رباعياته قدّم هذا المفهوم بطريقة جمعت بين الشك واليقين، إذ تدل "رباعياته ومؤلفاته واطلاعه الواسع في مختلف العلوم والفنون على عقل راجح وقريحة نادرة وعبقريّة فذة" قادته إلى التأمل في أمور الكون وترك ماديات الحياة واللجوء إلى الله وطلب المغفرة منه.

فيقول:

"نارُ الهوى تمنع طيب المنام
وراحة النفس ولذّ الطعام
القلْبُ قد أضناه عشقُ الجمال
والصدر قد ضاق بما لا يُقال"

٦

^١ بدوي الجبل ذاكرة الأمة والوطن-عزيز نصار-وزارة الثقافة-منشورات الطفل-عدد ١٨-دمشق-٢٠١٣-ص ٥

^٢ الرؤى الفكرية والفنية في شعر بدوي الجبل-د. عبد الكريم الأشر-مجلة مجمع اللغة العربية-مجلد ٨٢-ج ٣-ص ٤٥٧

^٣ ظواهر أسلوبية في شعر بدوي الجبل-عصام شرتح-اتحاد الكتاب العرب-دمشق-٢٠٠٥-ص ٢٢٥

^٤ التصوف في الشعر العربي-ص ٢٠

^٥ عمر الخيام-ص ٩٣

^٦ رباعيات الخيام-ص ٥٠

وهذا اعتراف صريح بضعفه أمام عظمة الخالق، وعجزه عن النوم والراحة لأنه يحاول فهم سر الوجود والتقرب من الله.

(فالهوى) هنا ليس شعوراً عادياً، بل هو شوق إلى المعشوق، هذا الشوق يبعده عن راحته الدنيوية ويضني قلبه ليشير إلى (عشق الجمال) الذي سبب له هذا التعب؛ فالجمال مطلقٌ تجلى في تفاصيل الكون التي دفعت الخيام لبلوغ أعلى مراتب الوجد الإلهي مع العجز عن البوح بالتفاصيل، لذلك نراه يتضرع لله راجياً المغفرة والعفو في قوله:

"بيني وبينَ النَّفسِ حربُ سجال
وأنت يا رَبِّي شديدُ المُحال
أنتظر العفو ولكنني
خجلان من علمك سوءَ الفِعال"

فالخالق محبوب غفور، والشاعر يعاني صراعاً مع نفسه في طريقه إلى الله. لذلك يجاهد نفسه ويعترف بضعفه أمام عظمة الله، ثم يستعين به لينصره على نفسه التي أذنبت وأثمت وجعلته يقف حياءً أمام مقام الخالق معترفاً عن كل تقصير بدا منه. هذا التصاعد والبناء الفكري في الأبيات يمثل تسلسل رحلة الصوفي التي تبدأ من مجاهدة النفس واستمداد القوة من الله ثم التضرع ورجاء المغفرة، وكأنه يحاول أن يتخلق بكل ما هو محمود ليقرب من الذات الإلهية؛ فالغاية "من الحب، في مرتبته الروحانية، هي التشبه بالمحبيب، مع القيام بحقه، ومعرفة قدره".^٢

أما بدوي الجبل فقد كان الحب الإلهي في شعره واضحاً، طغى عليه الشوق والوجد والحرقه للقاء المحبوب، وكأنه قد نهل من مناهل الصوفية "وتمثل مواقف الصوفيين من حب وشوق ووجد وهيام، ووقوف على الباب والإلحاح في الطلب، واللذة في السؤال" فيقول:

"وأمنتُ أنَّ الحبَّ والنُّورَ واحدٌ
ويكفرُ بالألأءِ كلُّ مريب"

إذ بنى البدوي قناعاته على فكرة أساسية هي (الحب والنور واحد)، وهذه القناعة نبعت من يقين وإدراك وفلسفة وتأمل؛ فالحب هو الطريق الأسمى للمعرفة، والمعرفة رمزها النور، لذلك فإن الوحدة بينهما هي الأساس ولا ينبغي أن ينكرها أحد.

وعلى الرغم من أن البدوي قد أقر "بأنه قد صان حياته من الشرك ومن كل ما يغضب الخالق، إلا أنه لا يأمن عذابه سبحانه" ولكن يقينه في عظيم وجود الله جعله لا ييأس من الفوز برضاه تعالى" لذلك يقول:

"هيّمان لهفان لا مأوىً لوحشته
قلبي الذي وسع الأكوان يؤويه
أبكي لبلوأة تحناناً ومغفرةً
روحُ الألوهة رُوحِي حينَ أبكيه"

فهو على الرغم من ضياعه وتشتته ووحشته يبكي شفقة على نفسه التي تاهت وهي تحاول بلوغ المعرفة، لذلك ظل هائماً متلهفاً تحرقه نار الشوق لله ويطلب مغفرة على تقصيره بحق هذا الحب، ليصل إلى ذروة مبتغاه وهو الاتحاد بالذات الإلهية عندما ذكر (روح الألوهة رُوحِي)، وهنا تكمن ذروة التجلي وإنكار الذات والتطهير بالبكاء عندما تذوب روح العبد في بوتقة الروح الإلهية.

^١ رباعيات الخيام-ص ٥٣

^٢ الصوفية والسورالية-أدونيس-ط٣-دار الساقية-١٩٩١-ص ١٠٣

^٣ ظواهر أسلوبية في شعر بدوي الجبل-عصام شرتح-اتحاد الكتاب العرب-دمشق-٢٠٠٥-ص ٢١٦

^٤ ديوان بدوي الجبل-دار العودة بيروت-تحقيق أكرم زعيتر-ص ٦٧

^٥ التجربة الشعرية في شعر بدوي الجبل-رايح فروجي-رسالة دكتوراه-جامعة فرحات عباس-الجزائر-سطيّف-٢٠١١/٢٠١٢-ص ٨٥

^٦ ديوان بدوي الجبل-ص ٤٠٢-٤٠٣

ب. رحلة الشقاء وترك الدنيا:

عندما كان الشاعر الصوفي يحاول أن يبلغ هدفه الأسمى وهو معرفة الحقيقة المطلقة والاتحاد بها، كان يسير في طريق وعرة شاقّة أساسها ترك الدنيا بما فيها من متاع ولذات، ولذلك كان يجاهد نفسه ويعيش فترات يأس وحزن. وها هو الخيام يقول:

" أَحْسَ فِي نَفْسِي دَبِيبَ فَنَاءٍ وَلَمْ أَصِْبْ فِي الْعَيْشِ إِلَّا الشَّقَاءَ"^١
فالخيام يواجه حتمية الموت والفناء ولا يرى في الحياة إلا تعباً وشقاء، ومرّد ذلك إلى وعي عميق بعدمية الوجود، لذلك نراه حائراً ضائعاً محاولاً الابتعاد عن لذات الدنيا وما يفعله الناس عندما صوّروهم في قوله:

" تَمَلَّكَ النَّاسَ الْهَوَى وَالغُرُورُ وَفَتَنَةُ الْعَيْدِ وَسُكْنَى الْقُصُورِ
ولو تَزَالَ الْحَجْبُ بَانَتْ لَهُمْ زَخَارِفُ الدُّنْيَا وَعُقْبَى الْأُمُورِ"^٢
" إِنَّ الَّذِي يَعْرِفُ سَرَ الْقَضَاءِ يَرَى سِوَاءَ سَعْدِهِ وَالشَّقَاءِ
الْعَيْشُ فَإِنْ فَلَندَغُ أَمْرُهُ أَكَانَ دَاءً مَسْتَأً أَمْ دَوَاءً"^٣

إنّ هذا النزوع الصوفي العميق عند عمر الخيام تبدي من خلال استنكاره لأفعال الناس وطريقة عيشهم في الدنيا وتمسكهم بها، لذلك اختار طريق البعد عنها والزهّد فيها منطلقاً من إيمانه العميق بنهايتها وفنائها.

الخيام لم يستطع إخفاء قلقه الوجودي، ولم ينكر سعيه الدائم إلى إدراك المعنى الحقيقي للحياة " غير أن الموت في التصوف وسيلة للحياة الأسمى، كذلك الموت في الحب، فهو وسيلة للتخلص من الجسد البشري"^٤ وبدوي الجبل عانى أيضاً من ثقل الحياة بهمومها وشقائها، فيقول:

" اتركيني بوحدتي وعنائِي واهربي من تأوّهِي وبُكائِي
ما بقلبي غيرُ الجراحِ وهل يرضيكِ مأوئٍ مدنسٍ بالدّماءِ"^٥
" في ظلمةِ الأحزانِ من نغماتِهِ نفسي الحزينَةُ تستعيرُ النُوراً"^٦

وكان مصدر معاناته هو البعد عن الله، لذلك يحاول أن يواجه نفسه ويتألم في كل خطوة، لكنه يدرك أن هذا الألم هو قربان الوصول. فهو يشبه قلبه بالمأوى المتعب المملوء بالدماء في تشبيهه ببلغ ترك فيه وجه الشبه مفتوحاً غير مقيد بشيء واحد، ليظهر أنّ الحزن والألم بداية طريق الانتعاق والخلّاص وبلوغ السمو الروحي.

وفي قوله (تستعير النورا) يحاول أن يستمد القوة والهداية من مصدر سماوي لينير قلبه ويزيل حزنه، ويكون هذا الأمل السماوي هو المعين للتخلص من الألم الدنيوي، وكأن رحلة الشقاء عنده شاقولية تبدأ من الأرض لتنتهي في السماء، والشاعر هنا يلجأ إلى فعل الاستعارة لا الأخذ ليظهر عجزه وضعفه، لذلك لم يهب الموت بل طلبه أملاً في لقيا المحبوب إذ يقول:

١ رباعيات الخيام-ص ٣٣

٢ رباعيات الخيام-ص ٤٦

٣ رباعيات الخيام-ص ٦١

٤ الصوفية والسورالية-ص ١٠٧

٥ ديوان بدوي الجبل-ص ٣٤٥

٦ ديوان بدوي الجبل-ص ٤٦٦

ثمَّ خُذني إليك يا موتُ جذلان طروباً إلى الرّدى مرتاحاً^١

وهو هنا لا يتمنى الموت هرباً بل شوقاً للوصال وقرباً للقاء، لكنه يترث في ذلك عندما استخدم (ثم) التي تشير إلى التراخي في الزمن؛ وكأنه يظهر ضعفاً قبل الطلب، وعلى الرغم من ذلك قال (جذلان طروباً مرتاحاً)، لأن الموت الجسدي هو ولادة الروح من جديد في عالم سماوي، يمثل نهاية رحلة الشقاء وبلوغ الحقيقة، لذلك دعا الموت في صيغة طلبية خالية من الخوف مملوءة بقدر كبير من التسليم لله، وهذه ذروة النضج الصوفي؛ فلا هو يقلق من الوجود، ولا يخاف الموت، بل يسعى إلى الطمأنينة. وبذلك نرى أن البدوي قد تقمص أساليب المتصوفة في التعبير عن مشاعره وأفكاره وخاصة فيما يتعلق بقضية الموت والحياة.

ت. الرموز الصوفية:

للمر والغموض دور كبير في الشعر العربي على مر العصور، غير أن الشعراء الصوفيين قد جعلوا الرمز وسيلتهم لنقل تجاربهم الروحية وكأن اللغة العادية في رأيهم عاجزة عن تأدية هذا الدور؛ فالرمز فيه تكثيف دلاليّ عظيم قادر على استحضار الفكرة والشعور بإيجاز ودقة. ولذلك كان "للصوفية أسلوب خاص في التعبير اشتهروا به، يمتاز بالغموض، وإيثار الرمز عن المعنى دون التصريح به"^٢

١- الخمر:

يعد الخمر من أبرز الرموز التي لجأ الشعراء الصوفيون إلى إدراجها في قصائدهم وقلمًا نجد قصيدة صوفية خلت من ذكر الخمر وما يتصل به، "ولما كانت الخمر في شعر الصوفية مجرد تلويح إلى معان خاصة تدور على المحبة الإلهية والعرفان الصوفي ووصف أحوال الوجد الروحي، فإنها لا تعدو أن تكون رمزاً"^٣ و "هي عند الخيام وسيلة للهروب من الواقع وإظهار الحيرة في قضية الوجود والمصير، وإشارته إلى الخمر التي يتحدث عنها هي الخمرة الإلهية، والسكر الذي يصفه هو السكر الصوفي"^٤ إذ يقول:

"يا من يحارز الفهم في قدرتك وتطلبُ النَّفسُ حمى طاعتك

أسكرني الإنم ولكنني صحوتُ بالأمالِ في رحمتك

لكنَّ إحسابي نزاعاً إلى إطلاقِ نفسي كأنَّ كلَّ السَّببِ"^٥

بدأ الخيام أبياته بمناجاة الله، ثم الاعتراف بالذنب والتقصير، يتبعها أمل بالرحمة مع إظهار المبررات، ولم يذكر الخمر بشكل صريح بل لجأ إلى استخدام ألفاظ تتعلق به.

فالسُّكر ليس مادياً بل هو غرق في الألم، هذا الألم الذي يقيد الروح ويتقلها، ويرمز إلى حالة الدهشة التي تصيب الشاعر، وهو حالة من الفناء عن الحس، أما الصحوة منه فهي أمل بالله، وأمل برحمته التي تفوق كل شيء.

لكنه يقول في موضع آخر:

^١ ديوان بدوي الجبل-ص ٤٦٢

^٢ التصوف في الشعر العربي-ص ٨٧

^٣ الرمز الشعري عند الصوفية-د. عاطف جودة نصر-دار الأندلس-دار الكندي-بيروت-ط ١-١٩٧٨-ص ٣٧٨

^٤ الاتجاه الصوفي في رباعيات الخيام-ص ٢١

^٥ رباعيات الخيام-ص ٤٣

"طارث بي الخمرُ إلى منزلٍ
فأصبحتُ روعي في نجوةٍ
فوق السماء الشَّاهقِ الأعزلِ
من طينِ هذا الجسدِ الأردلِ"

فهذه الخمرة أيقظت قلبه وحلقت بنفسه إلى عالم بعيد عن كل محسوس مدرك إلى عالم الملكوت الأعلى، وهذه النشوة التي يشعر بها ما هي إلا دهشة بالقدرة الإلهية. فكانت وسيلة للانعتاق والتحرر والبعد عن العالم المادي، لذلك فإن الخمر هنا قد يرمز إلى المعرفة والوجد الإلهي الذي يصبو إليه المتصوف، فلم "يبقَ من الخمر في شعر الصوفية إلا اسمها، وما يوحي به من سكر وانتشاء، قارن الصوفية به أحوال الوجد الإلهي"^١
ولم يختلف رمز الخمر عند البدوي عن سابقه من الشعراء الصوفيين؛ فهو أيضاً أدرجه في قصائده كرمز للكشف عن الحقائق والتحرر من الوجود بما فيه.

فيقول:

"أرجعي كأسِي يا فاتنتي
رقدتُ روعي على أغنيةٍ
إنّ في كأسِي من الخمرِ بقايا
لخبياتِ الأمانِي والمنايا"

الصراع القائم بين الشاعر ونفسه من جهة، وبينه وبين الواقع الاجتماعي والسياسي من جهة أخرى جعله يوظف الخمر لتكون سلاحاً في مواجهة الأمر.
"والكأس، بوصفها القلب، هي عين المظهر، والشراب هو عين الظاهر فيها، والشرب هو ما يحصل من المتجلى للمتجلى له، أي للشارب".^٢

وهي هنا أطلقت العنان لروحه للتمرد والتحرر من قيود الواقع وتخطي الخبيات، ويقول:

"طافتُ بك الكأسُ فرنحتها
نبعُ الصبا المسحور يشنقهُ
وَجُنَّ لما شمك الزعفرانُ
قلبي والسمرء والفرقدان
نشنته حتى شمالاته
فنحن لا نفنى ويفنى الزمان"

فالخمر هنا معادل للأبدية التي تحرر الشاعر من قيد الزمان، ثم تعبر به خارج حدود المكان ليبقى متلذذاً بنشوة اللقاء مع الذات الإلهية.

"إنّ السكر في العرفانية الصوفية ثمرةً للمحبة الإلهية، يصل إليها الصوفي حين يتجلى المحبوب في عينه وقلبه، فيأتيه السكر شبيهاً بدهشة فجائية تعترى وجدانه وتشل حواسه وتعطلها"^٣

لذلك كانت الخمر عند البدوي متعددة الدلالات تبعاً للموقف لكنها في بعدها الأساسي ترمز للمحبة الإلهية.
لقد التقى الشاعران في استخدام الخمر رمزاً للذات والوجود والانعتاق، لكن انعتاق الخيام كان روحياً بالمطلق، أما انعتاق البدوي فكان انطلاقاً من التحرر من الظلم بداية ليغدو محاولة للسمو الروحي في النهاية.

^١ ربايعات الخيام-ص ٦٠

^٢ الرمز الشعري عند الصوفية-ص ٣٧٠

^٣ ديوان بدوي الجبل-ص ٣٨٠

^٤ الصوفية والسورالية-ص ٩٧

^٥ ديوان بدوي الجبل-ص ٤٠٧

^٦ دلالة رمز الخمرة في الشعر الصوفي (ابن الفارض نموذجاً) -فريدة مولى-جامعة عبد الرحمن ميره بجاية-الجزائر-مجلة الخطاب-المجلد

١٧-العدد ٢-٢٠٢٢-ص ٤٨٩

٢- المرأة:

كانت المرأة عبر العصور مؤلدة انفعالات الشعراء في كثير من الأحيان، فأفردوا لها قصائد غزلية كثيرة، لكنها مثلت في الشعر الصوفي أبعاداً أخرى، ولذلك فقد "اختلط كثير من نصوص الشعر الغزلي الصوفي بالشعر الغزلي الحسي اختلاطاً صعب معه التمييز بينهما"

وترتبط مع المرأة عناصر كثيرة أبرزها الحب والشوق ووصف الجمال، ويقول الخيام:

"مصباح قلبي يستمد الضياء من طلعة الغيد ذوات البهاء
لكنتني مثل الفراش الذي يسعى إلى النور وفيه الفناء"^٢
"القلب أضناه عشق الجمال والصدر قد ضاق بما لا يقال"^٣

وهنا لم يكن الغزل حسيّاً؛ إذ لم يتحدث الخيام عن المرأة كشكل أو جسد، وليس الجمال الذي يقصده هو الجمال الجسدي، بل هو انعكاس لرؤيته للجمال الإلهي، وليس العشق عشقاً لامرأة بذاتها بل عشق للذات الإلهية وشوق للقيها، "إن المرأة، بوصفها المحبوبة، رمز للأنوثة الخالقة، للرحم الكونية، وهي بوصفها كذلك، علة الوجود، ومكان الوجود، والعاشق لكي يحضر فيها يجب أن يغيب عن نفسه، عن صفاته" فهو انتقاء للجمال المادي، وإشارة إلى الجمال المعنوي، لذلك نرى الشاعر مزج بين المرأة ورموز الطبيعة عندما استخدم (الفراش) الذي يرمز إلى الروح الإنسانية الساعية إلى الله، فكل شيء يسمو به روحياً. وفي قصائد أخرى تمثل المحبوبة دلالات مختلفة؛ فهي قد تكون الأرض حيناً والزوجة حيناً آخر، وقد تكون الأم، لكنها حملت في أبعادها أيضاً امتداداً للمحبة الإلهية لذلك جاءت مقترنة بالخمير غالباً، ففي قوله:

"أحبك حُباً لا تطوف به المنى عرائس في حلي الملاح العرائس"^٥
"أحسّ خطاي في اللهب المدمى إلى أفيائه الخضر الرطاب
بكيث من السراب فحين ولّى وأوحدني بكيث على السراب
بعزة لوعتي بحيان حزني بشكري عند لمحك واضطرابي"^٦

ينبض قلب البدوي بحب عميق للذات الإلهية، فجعل من المحبوبة وعاءً رمزياً سكب فيه خلاصة تجربته الروحية، لذلك استعان برموز أخرى تدعم ما يريد إيصاله في محاولة البحث عن الحقيقة المطلقة كغيره من الشعراء الصوفيين، إذ إن "معرفة الله عندهم قد بدت مشوبة بطابع وجداني عاطفي مشبوب، أساسه هذه البنية الرمزية للأنثى بوصفها من ناحية تجسداً للنفس التي تبدو معرفتها مقدمة جوهرية ومدخلاً لا غناء عنه إلى معرفة الربوبية، وبوصفها من ناحية أخرى مظهراً للتجلي الإلهي في الصورة العينية المحسوسة التي اعتبرها الصوفية من أكمل صور التجلي"؛ فالبدوي استخدم رمز

^١ التصوف في الشعر العربي-ص ٨٨

^٢ رباعيات الخيام-ص ٤٨

^٣ رباعيات الخيام-ص ٥٠

^٤ الصوفية والسوريالية-ص ١٠٧

^٥ ديوان بدوي الجبل-ص ٣٧١

^٦ ديوان بدوي الجبل-ص ٣٩٨-٣٩٩-٤٠٠

^٧ الرمز الشعري عند الصوفية-ص ١٥٣

(اللهب) للإشارة إلى شوقه العميق للقاء، متخلياً عن الماديات ، مترقياً عن الشهوات، ساعياً للنور، وكأنَّ (السراب) هو اللذات الزائلة التي أبكته؛ لذلك نراه يكرر هذه اللفظة للتعبير عن مشاعره المضطربة ، في حالة من التطهير الروحي التي تتجلى في البكاء .

٣- رموز الطبيعة:

الطبيعة التي نشأ فيها الشاعر الصوفي هي وسيلة يعبر من خلالها عن رحلته الروحية، ويتأمل في كل تفصيل من تفاصيلها لإدراك عظمة الخالق، ويبحث في كل ظاهرة طبيعية ليرى من خلالها انعكاس الحقيقة والقدرة الربانية. وقد تنوعت رموز الطبيعة في الشعر الصوفي، بين رموز استلهم الصوفية دلالاتها من مدركات وصور حسية تتعلق بالطبيعة الجرداء الهامدة من صخور كابية وجبال باذخة وصحارى شاسعة وربوع عافية وأطلال دارسة، وأخرى استمدوها من الطبيعة عندما تخصب وتهتز وتونع وتربو^١

وها هو الخيام يقول:

"وكيف تصخو وطيورُ الرّبي
صداحةٌ والرّوضُ غصّ الجناب
صفا لك اليوم ورقّ النّسيم
وجال في الأزهارِ دمعُ الغيوم"^٢

وهنا ذكر (الطير، الروض، النسيم، الأزهار، الغيوم) وتختلف دلالة كل واحد منها لكنها جميعاً تدور في فلك النفحات الإلهية والروح العاشق للحقيقة والبحث عن عالم الكمال بكل تفاصيله، فكل رمز يحمل بعداً روحياً وعمقاً دلاليّاً يقود إلى فهم الجمال الإلهي. فالطير يرمز إلى الروح الإنسانية المتطلعة للتحرر، والروض ترمز إلى القلب بما فيه من أزهار ترمز إلى الصفات الحميدة التي يتزين بها الإنسان، أما الغيوم فهي ترمز إلى الرحمة الإلهية التي تغمر الكون.

ولم يكن البدوي بعيداً عن ذلك أيضاً فهو يقول:

"توحّدتُ بالصحراء حتى مغيبها
ومشهدُها من مشهدي ومغيبها
"حنا السرابُ على قلبي يخادعه
بالوهم من نشوة السّقى ويغريه"^٣
"أنا طيرٌ لم يغرد فاسمعوا
بالدجى منه نواحاً وعويلاً"^٤

فها هو يتوحد بالطبيعة وكأنه جزء منها وهي جزء منه وخاصة (الصحراء) ؛ إذ ترمز إلى الفراغ والوحدة والوحشة في عالم يرفضه الشاعر ويسعى إلى سمو عنه. لذلك عاد وشبه نفسه بالطير وكأنه يحاول الارتقاء والارتقاء فوق كل شيء لبلوغ المعرفة والخلاص.

وذكر البدوي كثيراً من عناصر الطبيعة وكلها تدور في الفلك ذاته بما يوحي بدهشته بالقدرة الإلهية وذوبانه في بوتقة الجمال، لكنه انفرد "عن المتصوفة الآخرين بابتداع رموز صوفية خاصة به منها (السراب، والظعن، والطلل، واللهب القدسي، والروح والنور، والنفس، والصحراء، والرمال) ودارت هذه الرموز حول مشكلة الوجود، وكيفية الوصول إلى الحقيقة، والخلاص من الواقع، وقضية التطهير، والثواب والعقاب"^٥

^١ الرمز الشعري عند الصوفية-ص ٣٠٦

^٢ رباعيات الخيام-ص ٤١-٤٥

^٣ ديوان بدوي الجبل-ص ٦٤

^٤ ديوان بدوي الجبل-ص ٤٠٢

^٥ ديوان بدوي الجبل-ص ٤٣٩

^٦ ظواهر أسلوبية في شعر بدوي الجبل-ص ٢٠٦

الخاتمة

- السعي الإنساني لفهم سر الوجود والكون والوصول إلى السمو الروحي هو جوهر الصوفية مهما تعددت التيارات واختلفت العصور، لذلك استطاع البحث أن يقف على النتائج الآتية:
- عاصر الخيام الصوفية فاستلهم منها أشعاره وألفاظه ورموزه.
 - الصوفية عند البدوي هي امتداد للصوفية القديمة إلا إنه جدد في ألفاظه وصوغه وابتكر ألفاظاً نُسبت إليه وحده.
 - على الرغم من اختلاف النقاد حول تصوّف الخيام إلا إنه أثبت من خلال رباعياته عبقريته وفلسفته وثقافته الواسعة.
 - البيئة الدينية الأدبية كانت المؤثر الأكبر في شعر البدوي، ومنها استقى قصائده.
 - تشابهت بعض الرموز بين الشاعرين لكن هناك اختلافاً في الدلالات؛ وذلك يأتي من اختلاف كل تجربة شعرية ، ومن العصر الذي جاءت فيه، ومن المؤثرات التي تحيط بكل شاعر .
 - التجربتان الشعريتان عكستا بشكل متميز التجربة الروحية الإنسانية.

المصادر والمراجع

- ١- التصوف في الشعر العربي- عبد الحكيم حسن- مكتبة الأنجلوالمصرية-١٩٥٤.
- ٢- ديوان بدوي الجبل- تحقيق أكرم زعيتر- دار العودة-بيروت.
- ٣- رباعيات الخيام-أحمد رامي-دار الشروق-القاهرة-ط ١-١٤٢١/٢٠٠٠.
- ٤- الرمز الشعري عند الصوفية-د. عاطف جودة نصر-دار الأندلس-دار الكندي-بيروت-ط ١-١٩٧٨.
- ٥- الصوفية والسورالية-أدريس ط ٣-دار الساقى-١٩٩١.
- ٦- ظواهر أسلوبية في شعر بدوي الجبل-عصام شرحت-اتحاد الكتاب العرب-دمشق-٢٠٠٥.
- ٧- عمر الخيام-تأليف وترجمة أحمد حامد الطراف-مطبعة دار السلام-١٩٣١/١٣٥٠.
- ٨- لسان العرب-ابن منظور-تحقيق عبد الله علي الكبير-محمد أحمد حسب الله-هاشم محمد الشاذلي- دار المعارف-القاهرة-ط ١.
- ٩- الموفي بمعرفة التصوف والصوفي-تأليف الإمام كمال الدين أبي الفضل-جعفر بن ثعلب الأدفوي المصري-حققه د. محمد عيسى صالحية-مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع-الكويت-ط ١-١٤٠٨/١٩٨٨.

الدوريات والرسائل

- ١- الاتجاه الديني في رباعيات عمر الخيام-د. فخري بوش-مجلة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانية-مجلة ٣٦-العدد الرابع-٢٠٢٠.
- ٢- بدوي الجبل دراسة في حياته وشعره-محمد سليمان حسن-مجلة المعرفة-عدد ٤٦٤-١ مايو ٢٠٠٢.
- ٣- بدوي الجبل ذاكرة الأمة والوطن-عزيز نصار-وزارة الثقافة-منشورات الطفل-عدد ١٨-دمشق-٢٠١٣.
- ٤- التجربة الشعرية في شعر بدوي الجبل-رابح فروجي-رسالة دكتوراه-جامعة فرحات عباس-الجزائر-سطيف-٢٠١١/٢٠١٢.
- ٥- دلالة رمز الخمرة في الشعر الصوفي-(ابن الفارض أنموذجاً)-فريده مولى-جامعة عبد الحمين ميره-بجاية الجزائر-مجلة الخطاب-المجلد ١٧-العدد ٢-٢٠٢٢.
- ٦- الرؤى الفكرية والفنية في شعر بدوي الجبل-د. عبد الكريم الأستر-مجلة مجمع اللغة العربية-دمشق-مجلة ٨٢-ج ٣.